ORTHODOX LEGACY

التراث الأرثوذكسي

العدد الثامن، أيلول ٢٠٢٦ | السنة الثانية والعشرون

العناوين

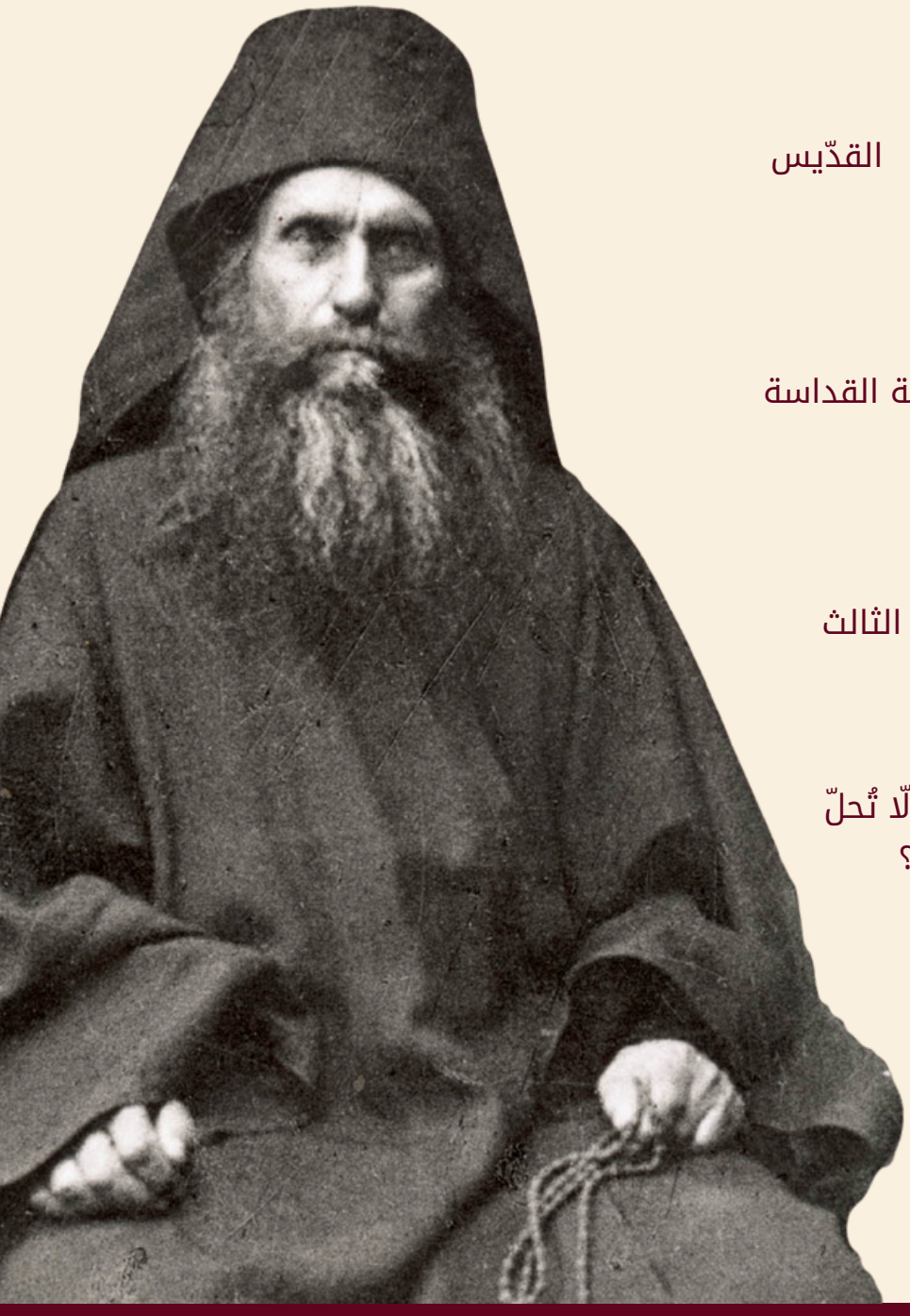

أصالة رؤيا المسيح في حياة القدّيس سلوان الآثوسيّ

الأرشمندريت زخريا (زاخارو)

عظة في ميلاد والدة الإله الكليّة القداسة

القديس يوحنا مكسيموفيتش

طوبى لمن يقرأ...
سلسلة تفسير سفر الرؤيا، الجزء الثالث

المتروبوليت أثناسيوس (ليماسول)

صون الرباط الزوجيّ: لماذا يجب ألّا تُحلّ الأزمات العائليّة إلّا ضمن العائلة؟

الأب ليونيد بارتكوف

تشبّثوا بالعارضة

الأب رافائيل نويكا

www.orthodoxlegacy.org

ISSN 1814-7038

أصالة رؤيا المسيح في حياة القدّيس سلوان الآثوسيّ

الأرشمندريت زخريا (زاخارو)

المسيح هو المعجزة التي تُذهلنا. هو الآية التي أعطاها الله لجميع الأجيال على مدى العصور؛ وفي شخصه، أُعطيَ الحلّ لكلّ مشكلةٍ وصعوبةٍ ومأساة. والقدّيسون أيضًا آيةٌ من الله لجيلهم لأنّهم يقتدون بالمسيح ويحملونه في قلوبهم. إنّهم يصبحون أدلّةً ملموسةً على محبّة الله في عالمٍ غارقٍ في ظلام الجهل واليأس.

يقدّم القدّيسون، بكلامهم وصلواتهم، إجاباتٍ عن أسئلة معاصريهم وحلولًا لمشكلاتهم. بالأحرى، الله نفسه يكلّم كلَّ جيلٍ بوساطة أعزّ أصدقائه، أي القدّيسين. وهذا الكلام الصادر إمّا عن الله مباشرةً وإمّا عن قدّيسيه، هو الذي سيدينُنا في اليوم الأخير (راجع يو 12: 48).

مؤخّرًا، أُعلنت قداسة الشيخ صفروني رسميًّا وأُدرج في مصافّ قدّيسي الكنيسة. ومن الأكيد للذين عرفوه، وكذلك للذين قرأوا كلامه المملوء حكمةً إلهيّةً والذي تركه لنا إرثًا، أنّه كان يملك حكمةً إلهيّة.

كانت قد أُعلنت قداسة شيخه القدّيس سلوان قبل ثلاثين سنة بوصفه "معلّمًا للكنيسة نبويًّا ورسوليًّا"، لكنّ كثيرين يعتبرون أنّ قامته الروحيّة مستترةٌ خلف بساطة كلامه. أخذ القدّيس صفروني هذا الأمر بعين الاعتبار عندما نشر كتابات القدّيس سلوان، فأرفقها بمقدّمةٍ من كتابته شرح فيها لمفكّري زمانه الأكثر تعمّقًا كلمات أبيه في الله، "الكلمات المقدّسة والنقيّة" ولكن "التي يصعب فهمها بسبب بساطتها".

يمكن تشبيه كتابات القدّيس سلوان بإنجيل القدّيس يوحنّا، الذي يُعدُّ الأبسط من الناحية اللغويّة ولكنّه يحتوي على كمال المعاني والكشف الإلهيّ.

إنّ حياة القدّيس سلوان لا تثير الاهتمام من حيث ظاهرها. فقد كان فلّاحًا روسيًّا، ونال تعليمًا متواضعًا، وعاش في دير القدّيس بندلايمون في جبل آثوس. لا يسمح لنا الوقت بالخوض في تفاصيل حياته الرهبانيّة، لكن ثمّة حدثان محوريّان طبَعا مسيرته الروحيّة.

يصفه كاتب سيرته بأنّه "رجلٌ ذو عطشٍ إلى الله لا يرتوي". في الواقع، كان الشوق إلى الله يحرقه حتّى قبل ذهابه إلى الجبل المقّدس وحتّى آخر يومٍ من حياته. منذ وصوله إلى الدير، عاش في جهادٍ روحيٍّ شديد. كان يحاول الالتزام بدقّةٍ وإصرارٍ كبيرَين بكلّ جانبٍ من جوانب الحياة الروحيّة: الصلاة غير المنقطعة، والخدم الكنسيّة، والمهامّ المرهقة، والسهرانيّات، والصوم، والمحبّة الأخويّة، وطبعًا قبل كلّ شيء، الطاعة.

بعد ستّة أشهر، ظنَّ أنّه بلغ ملء البرّ البشريّ، فتعب إلى حدّ اليأس، حتّى إنّه قبِلَ الفكر الذي قال له إنّ الله لا يُصغي إلى صلواته وإنّه قاسٍ لا يرحم.

ولكن، مَن هو الإنسان المخلوق والمحدود ليوجّه كلامًا كهذا إلى الله؟ كان ذهنُ المبتدئ الشابّ مغشّى، وغرقت روحه في عذابٍ لا يُطاق وفي ظلام الجحيم. مع ذلك، ذهب إلى الكنيسة حيث كانت الأخويّة مجتمعة، وفيما كان يسجد أمام أيقونة الربّ، وجدَ القوّة ليدعو اسمه قائلًا: "ربّي يسوع المسيح ارحمني أنا الخاطئ". حينها، نال البركة الفائقة الوصف، بركة معاينة المسيح حيًّا في موضع أيقونته.

في تلك اللحظة، امتلأ كيانُه كلُّه بالنعمة الإلهيّة، وحتّى جسده اشتهى أن يتألّم من أجل المسيح. نعلم من كلمات القدّيس سلوان أنّ النور الإلهيّ العظيم أشرق عليه، وأنّه نُقِلَ إلى السماء بالروح، حيث سمعَ كلماتٍ لا يُنطَقُ بها، ونالَ في تلك اللحظة ولادةً جديدةً من العُلى. ومع أنّه كان يسمع منذ طفوليّته في الخدم الكنسيّة: "المجد للآب والابن والروح القدس"، ففي تلك اللحظة فقط أدرك فعلًا وجود الروح القدس. اتّسع قلبه وبدأ سلوان غير المتعلّم –وفقًا لمعايير العالم- والذي لم يسبق له قطّ أن رأى خريطةً للأرض، بدأ بالصلاة من أجل خلاص العالم بأسره، وصار يرغب في أن ينال كلّ كائنٍ بشريٍّ الحصّة عينها من النعمة التي أُعطيَ هو أن ينالها.

عاش فرحًا فصحيًّا فترةً قصيرةً بعد الرؤيا، لكنّ طبيعته لم تكن متوافقةً بعد مع النعمة التي نالها، وسرعان ما بدأ حربًا طويلةً وضروسًا مع الأفكار، بخاصّةٍ أفكار المجد الباطل. وبسبب هذه الأفكار، كانت الشياطين تظهر له أحيانًا بهيئةٍ منظورةٍ وتعذّبه. حاربَ بشجاعةٍ وصبرٍ مدّة خمسة عشر عامًا؛ فكان ينام قليلًا، ويصلّي بكثافةٍ وحرارةٍ عظيمتَين، ويعمل بلا كلل.

ذات ليلة، فيما كان يهمُّ بالسجود أمام المسيح، ظهر أمامه شيطانٌ مستعدٌّ لتلقّي هذا السجود لنفسه. فيئس القدّيس وجلس على كرسيّه، وسأل الربَّ بألمٍ في قلبه أن يعلّمه ماذا يجب أن يفعل ليواضع روحه، حتّى لا تعود تُزعجه الشياطين. ثمّ سمع في قلبه صوتَ الله مجيبًا: "أبقِ ذهنكَ في الجحيم ولا تيأس".

قدّمَ له الربُّ الجحيم، لكنّ القدّيس قبِلَ الكلمة بشُكران. بدأ بالسلوك وفقًا لتوجيه الربّ، وكما يشهد هو نفسه، "تطهّر ذهنُه ووجدت نفسُه الراحة".

كما تُظهِرُ كلمات المسيح في الإنجيل، لا تكمن معرفة الله الكاملة في المساعي الفكريّة، بل في معاينة وجهه بالروح القدس، وفي صدى صوته في القلب. لكي يُريَ الربُّ اليهود أنّهم لم يعرفوا الله بحقّ، قال لهم: "لم تسمعوا صوته (الآب) قطّ ولا أبصرتُم هيئته" (يوحنّا 5: 37). فالله يُعرف من خلال الشركة الشخصيّة معه. وكما كان يقول القدّيس صفروني، معرفة الله واللاهوت كحالةٍ روحيّةٍ هما "الشركة في الكائن".

يدّعي كثيرون أنّهم عاينوا المسيح أو والدة الإله أو الملائكة، ولكن توجد في الكنيسة معايير ثابتةٌ لأصالة الرؤيا. في حالة معاينة القدّيس سلوان للمسيح، ما يشهد على أصالة هذه الخبرة هي المفاعيل المباشرة لهذه الرؤيا، وكذلك حياة القدّيس اللاحقة.

دعونا نفحص بإيجازٍ بعض النقاط التي تؤكّد أصالة رؤيا القدّيس سلوان، وأيضًا كمال هذا الرجل القدّيس:

1. انتقال النعمة إلى الجسد أيضًا

أوّلًا، لم تكن النعمة التي نالها ضربًا من خياله، بل كانت ملموسةً جدًّا. فكما أنّه شعر خلال جهاده النسكيّ بلُهب الجحيم تُحدِثُ جلبةً حوله، وتعذّب كيانه كلّه، جسدًا ونفسًا وروحًا، شعر أيضًا بالنعمة تغمر كيانه حتّى نخاع عظامه. اضطرم قلبه بمحبّةٍ عظيمةٍ تجاه المخلّص يسوع حتّى إنّه اشتاق إلى الاستشهاد من أجله.

2. كلام الكاملين

عندما زار القدّيس ستراتونيكوس -وهو ناسكٌ قدّيسٌ من بلاد القوقاز- القدّيس سلوان طلبًا للمنفعة الروحيّة، سأله الشيخ: "كيف يتكلّم الكاملون؟"، وقدّم بنفسه الإجابة قائلًا إنّ "الكاملين لا يقولون شيئًا من أنفسهم، بل ينطقون فقط بما يعطيهم الروح".

في الواقع، كشفَ بإجابته هذه عن طريقته هو في الكلام والكتابة. وعلى الرغم من بساطة كلماته وعفويّتها، فهي كلماتٌ تفتح آفاقًا جديدة. إنّها تضيء"مثل سراجٍ منيرٍ في موضعٍ مُظلم" (راجع 2 بط 1: 19)، وتقدّم حلولًا لمسائل ملحّةٍ وتُعرّفُ "سبُلَ الحياة" (راجع مز 15: 11). إنّها ثمرة صلاته ورجائه بأن "تحبَّ الربَّ ولو نفسٌ واحدة، وتعود إليه بنار التوبة".

3. التواضع الروحيّ

عندما شاهدَ القدّيس سلوان نظرة المسيح المتواضعة والهادئة والمُحِبّة، عرفَ في قلبه التواضع الإلهيّ "الفائق الوصف"، الذي له رتّلَ منذ ذلك الحين نشيدًا في كتاباته، وبحث عنه "مثل لؤلؤةٍ ثمينةٍ متلألئة". وعلى غرار بقيّة الآباء القدّيسين، ميّزَ بين نوعَين من التواضع: التواضع النسكيّ، والتواضع المواهبيّ أو الروحيّ.

التواضع النسكيّ هو جهاد الإنسان ليُصغّر نفسه أمام الله وإخوته. وذروة هذا التواضع هو أن يعتبر المرء نفسَه أسوأ من الكلّ.

مع ذلك، ليس هذا التواضع كاملًا لأنّه يخفي مقارنةً بالآخرين. أمّا التواضع الإلهيّ الحقيقيّ فقد أظهره المسيح بنزوله من السماء إلى أسافل الأرض، وهو عطيّةٌ من نعمته. يتجسّد التواضع الشبيه بتواضع المسيح في مفارقة أنّ الله غير المخلوق وغير المحدود والأزليّ أخلى ذاته وبذلَ حياته ليُعتق مخلوقه من الموت.

في الأوقات التي تزور فيها النعمة الإنسان، يدرك العناية والتدبير الإلهيّين المرهبَين. يرى تاريخَ العالم على أنّه عنايةٌ إلهيّةٌ مُحِبّةٌ متواصلة. وحينها، يقتنع في أعماق كيانه بأنّه ليس أسوأ الناس فحسب، بل أيضًا غير مستحقٍّ لإلهٍ مثل المسيح.

4. التوبة الشاملة

إنّ هذا الوعي لعدم استحقاقنا الشديد وعدم نفعنا أمام الربّ يسوع، ممزوجًا بالشُّكران على محبّته حتّى المنتهى وآلامه التي تفوق الإدراك، يُفضيان إلى توبةٍ لا تعرف نهايةً على الأرض.

تتكلّم بداية إنجيل المسيح ونهايته كلاهما على التوبة. ولا يمكن للإنسان أن يبلغ الله من دون التوبة. بكلامٍ آخر، تشبه التوبة جسرًا يربط بين حافتَي هاويةٍ سحيقة.

بلغ القدّيس سلوان حالاتٍ قصوى في توبته الشخصيّة وجهاده للمصالحة مع الله. وخلال معاينته الربّ يسوع، انتقلت إليه حالة الربّ. نال نعمةً وسّعتْ قلبَه ليحضن الأشياء كلّها، السماء والأرض، الله والإنسان.

حملَ المسيح ثقلَ خطيئة العالم بأسره، "إذ صار لعنةً لأجلنا" (غلا 3: 13). وجميع الذين يتبعونه وينالون حالته، مثل القدّيس سلوان، يلومون أنفسهم على سقوط البشريّة ويتوبون عنها. كيف يمكن للمرء أن يقتني وعيًا شاملًا كهذا؟

عندما يشرق نورُ النعمة في القلب، يكشف عن الظلمة التي يحملها الإنسان في داخله، ولكن أيضًا عن اشتراكه في الجوهر عينه مع البشريّة مجتمعة. لا يعود القريبُ شخصًا ما، شخصًا غريبًا يطمع في ممتلكاتنا، بل يصير، كما يشهد القدّيسون، أخانا وحياتنا وعضوًا في الجسد الذي ننتمي إليه نحن أيضًا. حينها يبدأ رجلُ الله في النوح لا على خطاياه الشخصيّة فحسب، بل أيضًا على الميراث الملعون الذي لارتداد العالم عن الله، ويتضرّع من أجل الخلاص الشامل.

في الفصل الذي يتحدّث فيه القدّيس سلوان عن انتحاب آدم، يعبّر القدّيس في العمق عن توبته الخاصّة. فصرخة آدم المدوّية بدموعٍ غزيرةٍ قد تردّد صداها في صحراء عالمٍ غارقٍ في الفتور واليأس، ومحرومٍ من نعمة الله المحيية والمنيرة. إنّ توبة آدم هي التوبة التي تلائم الإنسان المخلوق على صورة المسيح ومثاله. وعندما تُقدَّم توبةٌ كهذه إلى الله، تجتذبُ بركته وتنشرها في جميع أنحاء العالم.

5. العلم العظيم

إنّ الآفات الأساسيّة في أيّامنا هي: روح الكبرياء ومحبّة الذات، وإظلام الذهن وأسره من قبل الأرواح الشرّيرة، ومحبّة اللذّة، والفتور العامّ مع الشلل الروحيّ التامّ، والأحزان الكثيرة غير الطوعيّة، وأخيرًا، اليأس.

ما يجعل القدّيس سلوان آيةً لجيلنا هي قبل كلّ شيءٍ الكلمة التي تلقّاها من المسيح: "أبقِ ذهنكَ في الجحيم ولا تيأس". يلخّص هذا القول تقليدَ الكنيسة كلّه، ولكنّه في هذه الحالة المحدّدة، قيلَ بطريقةٍ موجزةٍ وبديهيّة.

من خلال الكلمة التي وجّهها الله إلى خادمه، كشفَ له السلاح الذي به يُغلَبُ العدوّ، وأظهر له وسيلة شفاء جسد البشريّة المجروح.

إنّ الجحيم هي جزءٌ من العالم المخلوق. انحدر إليها الربُّ نفسه لكي لا يترك شبرًا من الخليقة من دون أن يملأه بقوّته الخالِقة والمخلِّصة. حتّى خلال حياته الأرضيّة، نراه في كلّ مرّةٍ يتمجّد فيها، يوجّه ذهنه وأذهان تلاميذه نحو موته المخزي.

إذا كانت هذه الطريق –النزول أوّلًا ثمّ الصعود- هي التي من خلالها صالحَ المسيحُ الإنسانَ مع الله، فبنتيجة ذلك أنّه على الإنسان أن يسلكها هو أيضًا.

في الواقع، لكي يصبح الإنسانُ على مثال المسيح، عليه أن يتوسّع (stretch) نحو الأسفل ونحو الأعلى: في البداية نحو الأسفل من خلال التواضع ولوم الذات. يتّضع الإنسان أمام الله بإخضاع ذهنه وقواه النفسيّة إلى أدنى مستوى ممكن، لكنّه لا ييأس. ويتوسّع نحو الأعلى لأنّه ألقى مرساته في السماء، ويضع رجاءه كلّه على رحمة الله التي لا تُسبَر. من خلال لوم الذات، ينسحق كبرياؤه، وينسحق قلبه كلُّه. ولكن كما يشهد الآباء، لا شيء أشجع من قلبٍ منسحق.

يميل العدوّ إلى التوجُّه نحو الأعلى، هادفًا إلى تجاوز الله نفسه. عندما يلوم ناسكُ التقوى نفسَه ويتّجه نحو الأسفل، يعجز العدوّ بطبيعته عن اللّحاق به، وبذلك لا يعود الإنسان "أسيرًا لمشيئة العدوّ" (راجع 2 تي 2: 26)، ويبدأ بتذوُّق الحريّة "التي قد حرّرنا المسيح بها" (غلا 5: 1). إنّ التواضع الذي يستلزمه لومُ الذات يجتذب النعمة التي تشفي الضعفات وتُكمّل النقائص.

لا يدين الله مرّتين. عندما ندين أنفسَنا طوعًا ونعدُّ أنفسَنا مستحقّين الجحيم، يُعتقنا الربّ من الدينونة العتيدة. بالطبع، اختبر القدّيس سلوان هذه الحالة في شكلها المواهبيّ. إلّا أنّها عمومًا حالةٌ ممكنةٌ لكلّ مسيحيّ، لا بل ضروريّة، وتكون بقبول الآلام بصبرٍ ورجاءٍ في رحمة الله، مع تقديم التمجيد لاسمه ولوم أنفسنا فقط.

بالنسبة إلى القدّيس سلوان، صار قول الربّ "أبقِ ذهنكَ في الجحيم ولا تيأس" منهجًا نسكيًّا. كان له العلمَ العظيم الذي تعمّق فيه وأشار إليه بوصفه الطريق المؤدّي إلى ميناء اللاهوى الهادئ، وأخيرًا إلى الحياة الأبديّة.

6. الشخص

ليس الشخص مجرّد فردٍ نفسيّ، بل إنسانٌ خُلِقَ على صورة الله ويسعى لبلوغ مثال الله. كلّ أقنومٍ من أقانيم الثالوث القدّوس هو إلهٌ كامل، ويحمل ملء الجوهر الإلهيّ والقوّة الإلهيّة. على النحو عينه، يصبح الإنسان

أقنومًا عندما يحتضن في قلبه الوجود البشريّ بكلّيّته من البداية حتّى النهاية، ويرفعه إلى الله في صلاته المتضرّعة.

في لحظة الرؤيا المبارَكة، وقف المبتدئ الشابّ أمام المسيح وجهًا لوجه. عاينَ نظرته الهادئة وبذلك تذوّقَ الأبديّة. وانتقلت حالة المسيح هذه إليه، وصارت المشيئة الإلهيّة، التي هي خلاص الجميع، مشيئته هو. بدأ الشيخ يفهم وصيّة "أحببْ قريبكَ كنفسك" على أنّها أكثر من مجرّد قاعدةٍ أخلاقيّة. رأى في الحرف "ك" دليلًا لا على درجة محبّة، بل على وحدةٍ وجوديّةٍ في الكينونة.

7. الصلاة من أجل العالم

بعد الرؤيا، بدأ القدّيس سلوان بالتضرُّع من أجل خلاص الجميع، مصلّيًا إلى الله وجهًا لوجه. بات يرى المحيطين به بعينَي الله، لا بعينَي المنطق البشريّ القصيرتَي النظر. بات رؤوفًا بجميع المخلوقات، وأخذ يصلّي من أجل خلاص آدم الكونيّ. بالنسبة إليه، كانت محبّة القريب المعيار الذي يؤكّد أصالة محبّة الله.

8. محبّة الأعداء

في الجوهر، لم يصنّف الشيخ القدّيس الناسَ إلى أصدقاء وأعداء، بل إلى الذين يعرفون الله والذين لا يعرفونه. وإذ كان مدركًا أنّ البشريّة تُشكّل جسدًا واحدًا، لم يعد يستطع أن ينبذ أيّ عضوٍ من أعضاء جسده، ولا أن يتوقّف عن التوق إلى خلاصه. آمنَ بأنّ "الذين يُبغضون إخوتهم البشر ويرفضونهم هم ناقصون في كينونتهم، ولا يعرفون الإله الحقيقيّ، الذي هو محبّةٌ تعانق كلّ شيء، ولم يجدوا الطريق المؤدّي إليه".

إنّ وصيّة محبّة الأعداء هي ذروة الوصايا، لأنّها تعكس طريقة وجود الله. هو يقدّم حياته القدّوسة واللامتناهية إلى عدوّه، إلى الإنسان الخاطئ. وممّا لا شكّ فيه أنّ هذه الوصيّة تتجاوز قدرة الإنسان، ولا يمكن بلوغها من دون نعمة الروح القدس. ولهذا، بالنسبة إلى القدّيس سلوان، كان وجود هذه المحبّة مؤشّرًا على حضور الروح القدس، على المستوَيين الشخصيّ والكنسيّ.

إذًا، يحتوي تعليمه على المعيار الدقيق والموثوق للكنيسة الواحدة الحقيقيّة، والتي لا يمكن إلّا أن تكون الكنيسة التي تحمل في أحضانها نفوسًا هي مساكن للروح القدس، نفوسًا مملوءةً "محبّةً للأعداء شبيهةً بمحبّة المسيح، وتواضعًا شبيهًا بتواضع المسيح".

فضلًا عن المفاعيل التي ذكرناها، تَظهَرُ أصالة رؤيا القدّيس سلوان للمسيح بالتحديد في بساطة كتاباته. إنّ غنى الحياة الذي ينقله الله لمختاره لا يمكن وصفه بالعقل. هو ليس نتاج خيالٍ بشريّ، ولا يحرّك الخيال بأيّة طريقة.

لا يكتب القدّيسون شعرًا، بل يصفون خبرتهم الحيّة. ولا يُعرَف سرُّ أبديّة الله من خلال الأوصاف الجميلة والفكر السامي، بل من خلال العلاقة بالمسيح. في الاتّحاد بالله يكمن الكمال. إنّها علاقةٌ نجاهد لتنميتها وجعلها أبديّةً بدءًا من هذه الحياة. وكلمات مثل كلمات القدّيس سلوان تتولّى دور نجمٍ يهدينا في جهادنا.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Archimandrite Zacharias Zacharou (2021). *The Authenticity of the Vision of Christ in the Life of Saint Silouan*. Holy and Stavropegic Monastery of Saint John the Baptist, Essex, UK. Retrieved online from Essex Monastery.

عظة في ميلاد والدة الإله الكلّيّة القداسة

القدّيس يوحنّا مكسيموفيتش

أُلقيَت في تشينغداو في العام 1948

"ما أعظمَ أعمالكَ يا ربّ! كلَّها بحكمةٍ صنعتَ" (مزمور 103: 24)، هكذا هتفَ المرتّل منذ سالف العصور. فما هي تلك الحكمة (أو "صوفيّا" باليونانيّة) التي خُلِقَت بها كلُّ الأشياء؟

يقول مزمورٌ آخر: "بكلمة الربّ أُبدِعَت السموات، وبنسمة فيه قوّاتها جميعها" (مزمور 32: 6). ويعلن القدّيس يوحنّا الإنجيليّ اللاهوتيّ قائلًا: "في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله... كلُّ شيءٍ به كان، وبغيره لم يكن شيءٌ ممّا كان" (يوحنّا 1: 1-3).

إنّ حكمة الله أو كلمة الله الذي خلقَ الله به كلّ شيء، ليس محض مفهومٍ مجرّدٍ لصِفةٍ من صفات الله. يقول الإنجيليُّ نفسُه بعد ذلك: "والكلمة صار جسدًا وحلَّ بيننا، ورأينا مجده، مجدًا كما لوحيدٍ من الآب" (يوحنّا 1: 14).

إذًا، الكلمة الذي به خُلِقَ كلُّ شيء، هو ابن الله الوحيد، الأقنوم الثاني من الثالوث القدّوس. ويُدعى أيضًا "حكمة الله"، كما يقول الرسول بولس في رسالته: "لأنّ اليهود يسألون آية، واليونانيّين يطلبون حكمة، ولكنّنا نحن نكرز بالمسيح مصلوبًا... المسيح قوّة الله وحكمة الله" (1 كورنثوس 1: 22-24).

يُدعى ابنُ الله كلمةَ الله وحكمته لأنّ الله الآب يخلق كلّ شيءٍ بوساطة ابنه. وهكذا، من خلال ابن الله، يتكلّم الآب بوساطة أعماله، ومن خلاله أُعلِنت "حكمة الله المتنوّعة" (أفسس 3: 10).

لقد تجلّت حكمةُ الله أوّلاً في خلق العالم المنظور وغير المنظور. نحن نرى العالم الآن في حالته الخاطئة، وقد فقدَ صلاحه الأصليّ وتضرّر بالخطيئة، ولكن ما أروع هذا العالم وانعكاس حكمة الخالق فيه!

فلننظرْ إلى السماء، حيث الحركات المتناغمة للأجرام السماويّة، وحيث يتحرّك كلُّ شيءٍ وفقًا للقوانين الأزليّة التي وضعها الخالق في الطبيعة عند تكوينها. لا شيء يزعج مسارها، ويحدث كلُّ شيءٍ في تناغمٍ من دون أن يتداخل مع آخر.

ولننظرْ حولنا: نرى حكمة الخالق في كلّ نبتة، وكلّ حيوان، وكلّ حصاةٍ صغيرة!

يمتلك كلُّ حيوان، وصولاً إلى أصغر حشرة، التكيُّفات اللازمة للحفاظ على حياته وحمايتها وتطويرها، ولتكاثر فصيلته.

يتكوّن كلُّ كائنٍ حيٍّ أو جمادٍ في الطبيعة من أدقّ الجُسيمات المرتَّبة بتناغم، ويمثّل بنيةً مذهلةً ونسيجًا أنيقًا، ويدلُّ على بنّاءٍ وفنّانٍ عظيم.

ولنُلقِ نظرةً فاحصةً إلى أنفسنا: يا لها من تركيبةٍ عجيبةٍ وحكيمةٍ للعالمين غير المنظور والمنظور نمثّلها نحن! بأجسادنا التي تنتمي إلى العالم المادّيّ، نمثّلُ أبدع خليقة، حيث يكون لكلّ خليّةٍ هدفها الخاصّ.

كلّما تعمّق العلم في أسرار الطبيعة، اتّضح أكثر أنّها من صُنع أعظم حكمة، واتّجهت أنظارُ عقولنا إلى أعلى، مُدركةً خالقها. إنّ قدرتنا عينها على الإدراك والتفكير، واستخدام الاكتشافات، والإبداع، والسلوك بحكمة، تُظهِرُ أنّنا لم ننشأ بالصدفة، بل نحمل في داخلنا بصمة الخالق الحكيم.

وروحنا على وجه الخصوص، التي على صورة الله، تشهد لله الكلّيّ الحكمة، وترفع الإنسان عاليًا فوق الأرض وبحر الحياة، وتسمح لنا، حتّى في هذه الحياة الحاضرة، بالتواصل مع القوّات العلويّة.

لدينا هذا كلّه، حتّى الآن في حالتنا الخاطئة، حالة السقوط، وفي طبيعةٍ خاضعةٍ للفساد. فكيف كان جمال العالم وصلاحه عندما خُلِق؟!

إذ نظر لوسيفوروس أوّلُ الملائكة إلى جماله، تكبّر ورغب في أن يصبح مساويًا للضابط الكلّ، فسقط وابتعد عن الله. ولما طُرح من السماء، حسد الإنسانَ المخلوق وجرّبه ليُخالف وصايا الله.

وبعد أن أخطأ آدم الأوّل، فقدَ هو والبشريّة جمعاء مجدَهم وكرامتهم الأصليّة. أظلمَ العقل البشريّ، وضعفت الإرادة، وتدنّست المشاعر. فقدَ الإنسان الشركة الممتلئة نعمةً مع الله ينبوع الحياة، وصار مائتًا.

ومع سقوط إكليل الخليقة، أي الإنسان، حدث تغييرٌ في العالم بأسره، لأنّ الخطيئة جلبت معها كلّ عواقبها. أصبح العالم كلُّه فاسدًا وخاطئًا. وأخذت الطبيعة، وفي مقدّمتها الحيوانات، تؤذي الإنسان، بينما كان هو يكابد في أعماقه آلام الانفصال عن الله.

ومع ذلك، وحتّى قبل تأسيس العالم، سبق الله الكلّيّ الحكمة أن رأى سقوط الإنسان الذي خلقه، وليس ذلك فحسب، بل سبق أن حدّد أيضًا كيفيّة إصلاحه. فقبل بدء العالم، كان قد قُرّر في مشورة الثالوث القدّوس أنّ ابن الله، الأقنوم الثاني من الثالوث القدّوس، سيصير إنسانًا ويحمل خطايا العالم ويُكفّر عن تعدّي آدم.

لم يُعلَن لأحدٍ الدواء المُعَدّ للمرض البشريّ، بل ظلّ قرارُ مشورة الثالوث القدّوس سرًّا عن العالم المخلوق بأسره. كان من الضروريّ إعداد مسكنٍ لائقٍ على الأرض لابن الله المتجسّد. وكان من الضروريّ إيجاد إناءٍ طاهرٍ في أوساط الجنس البشريّ الذي أفسدته الخطيئة، لينحدر إليه كلمة الله غير المخلوق بكلّيّته، وبالجسد الذي يتّخذه، يحلّ بين الناس ويصير هو نفسه إنسانًا. لقد استغرق الأمر قرونًا عديدةً لإعداد تحقيق تدبير الله الحكيم، ولتظهر العذراء الطاهرة المستحقّة أن تصير أمًّا بحسب الجسد لذاك الذي به خُلقت السماء والأرض، والذي به كان سيتحقّق قصدُ الثالوث الكلّيّ الحكمة لخلاص العالم.

"ولما جاء ملءُ الزمان" (غلاطية 4: 4)، وحان الوقت ليتجسّد ابنُ الله على الأرض، أعلن الله لرئيس الملائكة جبرائيل سرّ مشورة الثالوث القدّوس العجيبة، وأُرسِلَ هذا الأخير إلى الناصرة ليُبشّر العذراء مريم بمخلّص العالم الذي سيولَد منها.

ظهر جبرائيل للعذراء الكلّيّة الطهارة مُعلنًا للبتول المشورة التي ما قبل الدهور وقائلاً لها: "افرحي أيّتها الممتلئة نعمة! الربُّ معكِ: مباركةٌ أنتِ في النساء... ها أنتِ ستحبلين وتلدين ابنًا وتسمّينه يسوع. هذا يكون عظيمًا، وابن العليّ يُدعى" (لوقا 1: 28-32). ارتبكت الفتاة الشابّة المتواضعة عندما سمعت هذه التحيّة. فمنذ سنّ الثالثة كانت في الهيكل الذي أرسلها إليه والداها. كانت هناك في صلاةٍ مستمرّة، وتربّت في قدس الأقداس حيث سمعت أقوالًا سماويّة، لكنّها لم تكن تتخيّل أن تكون أمّ الفادي، لا سيّما وأنّها قد نذرت البتوليّة.

قال الملاك مُجيبًا عن سؤالها "كيف يكون هذا وأنا لستُ أعرف رجلاً؟": "الروح القدس يحلُّ عليكِ وقوّة العليّ تُظلّلكِ، فلذلك أيضًا القدّوس المولود منكِ يُدعى ابن الله". فأجابت مريم بتواضعٍ وخضوعٍ لمشيئة الله:

"هوذا أنا أمة الربّ! ليكنْ لي كقولك" (لوقا 1: 34-38). حينها حلَّ في مريم كلمة الله، ابن الله الوحيد، هو الذي "لا تسعُه سماءُ السموات" (1 ملوك 8: 27؛ 2 أخبار الأيّام 6: 18)، الذي "السماء كرسيّه والأرض موطئ قدميه" (إشعياء 66: 1؛ أعمال الرسل 7: 49)، اختار العذراءَ مسكنًا له، وجعل عرشَها مضجعًا وبطنَها أرحبَ من السموات. لقد ظهرت العذراء مريم "أرحبَ من السموات".

وبعد تسعة أشهرٍ ولدت ابنًا، ولدت الله ظاهرًا في الجسد. "إنّ السرّ الخفيّ منذ الدهور غير المعلوم عند الملائكة، بكِ ظهرَ يا والدة الإله للّذين على الأرض، إذ تجسّد الإله باتّحادٍ لا تشوُّش فيه، وقبِلَ الصليب طوعًا من أجلنا".

ومع ذلك، بقيت بتوليّة مريم وتجسُّد ابن الله منها سرًّا عن الشيطان حتّى أتمّ الربُّ عملَ خلاصنا. "فلنقبل الصليب طوعاً"، لأنّ الربّ يسوع المسيح، باحتماله الموت وقيامته من بين الأموات، وهبَ الحياة للجنس البشريّ وفتح الفردوس المحفوظ لهم. وبتجسُّده من العذراء مريم، "آدم دُعِيَ ثانية، واللعنة بادت، وحوّاء انعتقت، والموت أُميتَ، ونحن قد حيينا".

إلى جانب الإنسان، يتحرّر العالم كلُّه من الفساد، مستعدًّا الآن لليوم الذي سيتطهّر فيه الكونُ بالنار، وتُعتق الخليقة كلُّها من عبوديّة الفساد، وتُظهِرُ السماء الجديدة والأرض الجديدة خليقةَ الله بكلّ جمالها وصلاحها.

وهكذا تُدمَّر خطّة خبث الشيطان، ويوجّه خالقُ العالم كلّ شيءٍ بحكمةٍ وفقًا لمشيئته لصالح الخليقة كلّها. فكما خلقَ الله العالم في الأصل بكلمته، أي بوساطة ابنه، هكذا، بابن الله يُولَدُ العالم من جديدٍ بعد السقوط. ذاك الذي به أُعلنت حكمة الله في الخليقة، به أيضًا أُعلنت حكمة الله في استعادة العالم الذي دمّرته الخطايا وفي إعادة نعمة الله إليه.

لذلك، يُدعى ابنُ الله حكمة الله، أو باليونانيّة "صوفيّا"، لأنّنا به عرفنا ونعرف الله الكلّيّ الحكمة. يسوع المسيح "صار لنا حكمةً من الله وبرًّا وقداسةً وفداءً" (1 كورنثوس 1: 30).

إنّ العذراء الكلّيّة الطهارة، التي تجسّدَ منها المسيح ابن الله، خالقنا ومخلّصنا، لكي يهبنا الحياة الأبديّة، كانت السلَّم الذي نزل الله بوساطته إلى الأرض، وأصبحت لنا الجسر الذي نصعد به إلى السماء.

قبل وقتٍ طويلٍ من تجسُّد المسيح، تنبّأ الأنبياء بمجيء المسيّا منها. رآها النبيُّ حزقيال بابًا مغلقًا في المشرق، يدخل منه الربُّ ويبقى مغلقًا، ما يعني أنّ مريم تبقى عذراء قبل الميلاد، وفي الميلاد، وبعد الميلاد. أمّا النبيّ دانيال، ففي تفسيره لحلم نبوخذ نصّر الغامض، فقد رآها جبلاً بكرًا، قُطِعَ منه حجرٌ بغير يدِ إنسان فملأ الأرض كلَّها، وهو ما يشير أيضًا إلى ميلاد المسيح من العذراء بلا زرعٍ وبلا دنس. ويهتف النبيُّ إشعياء قائلًا: "هوذا العذراء تحبلُ وتلِدُ ابناً وتدعو اسمه عمّانوئيل: الذي تفسيره الله معنا!" (إشعياء 7: 14؛ متى 1: 23).

وفي العصور القديمة، رأى الجدُّ الأكبر يعقوب في حلمٍ سلَّمًا منصوبةً على الأرض ورأسها يمسُّ السماء، ما يرمز إلى تلك التي نزل بوساطتها ابنُ الله إلى الأرض. ويرنّم لها داود الملكُ المرتّل بوصفها الملكة التي قامت عن يمين الملك، موشّاةً بالذهب ومزيّنة، وكلُّ مجدها من داخل. ويتحدّث عنها سليمان الحكيم في سفر الأمثال بوصفها بيتًا للحكمة: "الحكمة بنَتْ بيتها، نحتَتْ أعمدتها السبعة" (الأمثال 9: 1). البيت الذي سكن فيه الحكمة الأزليّ خلال التجسُّد هو حيث ظهرت العذراء مريم الكلّيّة الطهارة. وأعمدة هذا البيت هي فضائلها. كان الرقم سبعة يشير عند شعوب الشرق القديمة إلى الكمال، وتشير أعمدة البيت السبعة إلى كمال صلاح والدة الإله. لذلك، تُصوّر الأيقونات حكمة الله وابن الله جالسًا على العرش، وكأنّه في مبنى على سبعة أعمدة، في إشارةٍ إلى أمّه الكلّيّة الطهارة. في الأعلى سبعة رؤساء ملائكة، وعلى الجانبين سبعة أنبياءٍ معهم لفائفُ مكتوبٌ عليها نبوءاتٌ عن العذراء مريم، وفي الأسفل أسماء الفضائل السبع. يشير الرقم سبعة، المتكرّر مرّاتٍ عديدة، إلى الكمال الروحيّ للعذراء المباركة.

الآن، عندما نرتّل "ميلادكِ يا والدة الإله بشّرَ بالفرح كلّ المسكونة"، يُبنى بيتٌ أرضيّ للحكمة الأزليّ، ويُهيَّأ مسكنٌ لابن الله الآتي من السماء ليُخلّص الجنس البشريّ.

"المسيح من السموات فاستقبلوه". لاستقباله، يُعدُّ خدرٌ حيٌّ وهيكلٌ مكرَّس، ليحلّ فيه كلمة الله الأزليّ النازل من السماء، وتبدأ من هناك إعادة بناء العالم، ليوحّد السماء والأرض من جديد.

فلنفرحْ ونبتهجْ بميلاد مريم البتول المختارة من الله، ولنُسبّح عذراءَ العليّ الكلّيّة الإكرام، أمّ الله الكلّيّة الطهارة، بيت حكمة الله، ولنُقدّم الإكرام اللائق لوالدَيها البارَّين. "ولملك الدهور، الذي لا يفنى ولا يُرى، الإله الحكيم وحده، يسوع المسيح، الكرامة والمجد إلى أبد الآبدين، آمين" (1 تيموثاوس 1: 17؛ رومية 14: 26).

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Saint John Maximovitch (1948). *Homily on the Nativity of the Most Holy Theotokos*. Retrieved online from Mystagogy Resource Center.

طوبى لمن يقرأ...

سلسلة تفسير سفر الرؤيا، الجزء الثالث (أ)

المتروبوليت أثناسيوس (ليماسول)

طُوبَى لِلَّذِي يَقْرَأُ وَلِلَّذِينَ يَسْمَعُونَ كَلِمَاتِ النُّبُوَّةِ (رؤ 1: 3)

توقّفنا عند الآية الرابعة من الإصحاح الأوّل. في المرّة السابقة، قلنا إنّ سفر الرؤيا هو إعلان يسوع المسيح الذي أعطاه إياه الله ليُري عبيده ما لا بدَّ أن يكون عن قريب (رؤيا 1: 1). أكرّر أنَّ هذه الأمور قد كُتِبَت لأنَّها ستحدث بهذه الطريقة الموصوفة – وليس أنَّ الأمور ستجري هكذا لأنَّه سبقَ الإنباء بذلك. هذا كلّه سيقع، ولذلك دوِّنت نبوءةٌ عنه. لو قلنا عكس ذلك فسيبدو وكأنَّ الله هو الملوم على كلّ هذا الشرّ. لقد أُعلِن أنّ جميع هذه الأحداث المريعة ستقع بتدبيرٍ من البشر أنفسهم، وهم سيكونون مسؤولين عمّا يحدث. الله عليمٌ بذلك، ولهذا دوّنت النبوّة.

أرسل المسيح الرؤيا بوساطة ملاكه إلى عبده الرسول يوحنّا الإنجيليّ، الذي نقل كلمة الله وشهادة يسوع المسيح حول ما رأى وسمع. **"طُوبَى لِلَّذِي يَقْرَأُ وَلِلَّذِينَ يَسْمَعُونَ أَقْوَالَ النُّبُوَّةِ، وَيَحْفَظُونَ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِيهَا، لأَنَّ الْوَقْتَ قَرِيبٌ"** (رويا 1: 3). تحدّثنا كيف أنّ عبارة "الوقت قريبٌ" لا تعني الوقت ضمن بعدنا الزمنيّ، لأنّ الله خارج حدود زمننا البشريّ ويتحرّك ضمن بُعده الإلهيّ.

فلننتقل إلى الآية الرابعة، حيث يبدأ يوحنّا الرسول بالتكلُّم بعد المقدّمة. **"يُوحَنَّا، إِلَى السَّبْعِ الْكَنَائِسِ الَّتِي فِي أَسِيَّا: نِعْمَةٌ لَكُمْ وَسَلاَمٌ مِنَ الْكَائِنِ وَالَّذِي كَانَ وَالَّذِي يَأْتِي، وَمِنَ السَّبْعَةِ الأَرْوَاحِ الَّتِي أَمَامَ عَرْشِهِ"** (رؤيا 1: 4). هذه هي الكنائس الموجودة في آسيا الصغرى. كانت هناك كنائس أخرى في أماكن مختلفةٍ آنذاك. هذه الكنائس السبع والأعين السبع والأرواح السبعة –سنجد الرقم سبعة يتكرّر كثيرًا– لها معنىً رمزيّ، وهو الكمال، مثل سبعة أيّام الخلق. معنى ذلك أنّ كلمات هذه النبوءة موجَّهة إلى الكنيسة قاطبةً في العصور كلّها.

يقول يوحنّا الرسول إنَّه يصلّي كي يهبَ الربُّ نعمته وسلامته؛ الربُّ الكائن والذي كان والذي يأتي. ستلاحظون، وبالأخصّ علماء اللغة، أنَّ الرسول يغيّر ترتيب الكلمات. فعوضًا عن القول: "الذي كان، والكائن، والذي يأتي"، يُغيّر الرسول الترتيب، مع أنَّه كان يُجيدُ اليونانيّة، فيقول: "الكائن والذي كان والذي يأتي"، مشيرًا بذلك إلى الله. يصلّي الرسول أن تحلَّ نعمة الله وسلامه على المسيحيّين. والنعمة هي العتق الذي منحه الله للعالم. عندما نقول في الكنيسة كلمة "نعمة"، فإنَّنا نفهم هذه الكلمة بمعنى قوّة، قوّة الله غير المخلوقة التي تنسكبُ على الإنسان وتخلّصه. يَخلُص الإنسان بنعمة الله – يمكننا تفسير الأمر بهذه الطريقة. يُحرَّر الإنسان مجّانًا. أعطيَ لنا خلاصنا مجّانًا؛ لم نقدّم نحن شيئًا بالمقابل. خلَّصنا المسيح مجّانًا. ولتكنْ نعمة عتقنا هذه، وقوّة الروح القدس، وسلام الله معنا جميعًا.

السلام هو ثمرةٌ من ثمار حلول النعمة. حين تسكن النعمة في إنسان، يصيرُ سلاميًّا. لا سلام من دون النعمة. حيثما رأيتم اضطرابًا أو هياجًا أو صياحًا أو صراخًا أو تشنّجًا أو فوضى، فاعلموا أنَّ النعمة غير حاضرة. لا يمكن أن تمكث النعمة حيث لا يوجد سلام. يقيم الله مسكنه في الإنسان السلاميّ. ولا يسكن في إنسانٍ قَلِق، ومضطرب، وغاضب، وعصبيّ، ومكفهرّ، ومشوَّش. الله إله سلام، وفي السلام يقيم. يكشف نفسَه في السلام ومن خلال أناسٍ يقتنون السلام في داخلهم. وحين تأتي النعمة، فإنَّ أولى علامات مجيئها هي السلام، ولهذا يقول المسيح دائمًا: "سلامٌ لكم". حين يكون الله حاضرًا، أوّل ما نشعر به هو السلام. وحين يغيب الله وتكون قوّة الشيطان فاعلة، نشعر باضطرابٍ داخليّ. تكون نفسنا في حالةٍ من التخبُّط، وتفتقر إلى السلام، ولا يمكن لأيّ شيءٍ أن يعزّينا. حيث يكون اضطرابٌ وإرباك، لا يكون الله موجودًا. لن أطيل الحديث عن هذا، لكن سأحاول المتابعة في النصّ، لأنّه طويل. أظنّ أنَّ ما يصفه السِّفر بعد ذلك سيثير اهتمامكم.

يقول الرسول: "نِعْمَةٌ لَكُمْ وَسَلاَمٌ مِنَ الْكَائِنِ وَالَّذِي كَانَ وَالَّذِي يَأْتِي" (رؤيا 1: 4). الكائن والذي كان والذي يأتي: هذا تذكيرٌ بثالوثيّة الله. كلمة "الكائن" تذكّرنا بالله في العهد القديم. ففي خروج 3: 14، نرى الله يتحدّث مع موسى، وبعد أن أرسله ليقود الشعب خارج مصر، سأل موسى اللهَ كيف يجيب بني إسرائيل إذا ما سألوا عن اسمه. "فَقَالَ مُوسَى للهِ: «هَا أَنَا آتِي إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَقُولُ لَهُمْ: إِلَهُ آبَائِكُمْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ. فَإِذَا قَالُوا لِي: مَا اسْمُهُ؟ فَمَاذَا أَقُولُ لَهُمْ؟» فَقَالَ اللهُ لِمُوسَى: «أَهْيَهِ الَّذِي أَهْيَهْ [الكائن]»" (خروج 3: 13-14).

بالعبريّة، يُكتَب هذا الاسم بأربعة أحرف: יהוה. ولم يكن اليهود ينطقونه مطلقًا، لذلك لا نعرف كيف كان يُلفَظ اسم الله بالضبط – على الأرجح "يهوه". اليوم يوجد شهود يهوه – وهم أتباع مذهب الألفيّة وهراطقة، ويلفظون هذا الاسم باستمرار، مع أنّه مجرّد واحدٍ من أسماء الله. في العهد القديم، كان الله يُدعى بأسماء مختلفة: أدوناي، إلوهيم، صباؤوت. وكان "يهوه" أحد هذه الأسماء. غير أنّ اليهود، عندما كانوا يرون هذا الاسم في العهد القديم، لم يكونوا يقرؤونه جهارًا أبدًا، لأنّهم كانوا يوقّرون اسم الله ويخشون التلفُّظ به. وعندما كانوا يرون هذه الأحرف، كانوا يقولون عوضًا منها "صباؤوت" أو إلوهيم – أحد الأسماء الأخرى. ثمّ عندما تُرجِمَ هذا الاسم إلى اليونانية (ترجمه سبعون مترجمًا يهوديًّا حكيمًا من العبريّة قبل مجيء المسيح بمئتي سنة. لم نكن نحن المسيحيّين مَن ترجم العهد القديم)، ترجموا هذه الأحرف الأربعة: "ο Ων, ο Υπάρχων" [الكائن، الذي هو]. وهنا فإنّ الرسول يوحنّا الإنجيليّ، مستعينًا بهذه الترجمة السبعينيّة، طبعَ اسم الله مذكّرًا إيّانا بأنّ هذا هو نفسه إله العهد القديم، الكائن.

علاوةً على ذلك، فإنّ الفعل المستخدم هنا هو عينه المستخدَم في العهد الجديد حين يقول: "فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ" (يوحنّا 1: 1، في اليونانيّة الفعل عينه: ἦν كان). وأمّا "الذي يأتي" فتشير إلى الروح القدس. يمكننا القول إنّ هذه العبارة كلّها تشير إلى ثالوثيّة الله. ولكن يمكننا أيضًا القول إنّها – "الكائن والذي كان والذي يأتي" – تشير إلى الله ككلّ، لأنّ الخصائص الثالوثيّة مشتركةٌ بين جميع الأقانيم.

إذًا، نعمةٌ لكم وسلامٌ من الكائن والذي كان والذي يأتي (أي من الآب)، ومن السبعة الأرواح التي أمام عرشه (أي من الروح القدس). تحدّثنا سابقًا عن سبع كنائس، وهنا نتحدّث عن سبعة أرواح. إنّها نعمة الروح القدس. ليست سبعة أرواحٍ قدّوسة، بل خصائص الروح القدس. يذكر إشعياء النبيّ خصائص الروح القدس السبعة – روح حكمة، روح فهمٍ، روح قوّة، والخصائص الباقية. ويذكر خصائص الروح القدس السبعة ليُبيّن ملء مواهب الروح القدس، والموجودة أمام عرشه؛ أي أنّ لنا نعمةً وسلامًا من الروح القدس. ومن ثمّ يقول الإنجيليّ: "ومن يسوع المسيح". أترون، لدينا إشارةٌ صريحةٌ إلى الثالوث القدّوس: الله الآب، والروح القدس، ويسوع المسيح. أمّا شهود يهوه الكذَبة، أتباع مذهب الألفيّة، يقولون إنّ الثالوث القدوس لم يُذكَر في الكتاب المقدّس مطلقًا، لكنّنا نرى مواضع كثيرةً يجري فيها الكلام بوضوحٍ على الثالوث القدّوس، من أجل يقين الكنيسة.

تقول الآية الخامسة: **"وَمِنْ يَسُوعَ الْمَسِيحِ الشَّاهِدِ الأَمِينِ، الْبِكْرِ مِنَ الأَمْوَاتِ، وَرَئِيسِ مُلُوكِ الأَرْضِ: الَّذِي أَحَبَّنَا، وَقَدْ غَسَّلَنَا مِنْ خَطَايَانَا بِدَمِهِ"** (رؤيا 1: 5). المسيح شاهدٌ أمين؛ شهد للحقّ أمامنا. أعلن لنا الحقّ عن الله، والحقّ عن الثالوث القدّوس، والحقّ عن خلاص الإنسان بوساطته هو. المسيح شاهدٌ أمينٌ وهو بِكر الأموات – الذي قام أوّلًا من بين الأموات وبوساطته سيقوم جميع الراقدين الآخرين. هذا يكشف إيمان الكنيسة أنّ جميع الأموات سيقومون؛ لن يكون هناك إنسانٌ واحدٌ لن يقوم. عندما يأتي المسيح في المجيء الثاني سنقوم جميعنا. الجميع. لا يهمُّ من نحن أو أين نعيش أو كيف متنا – سنقوم جميعنا من دون استثناء. ليست نفسنا هي التي ستُقام لأنّ النفوس لا تموت، أجسادنا هي التي ستُقام. الجسد الذي لنا الآن سيُقام. بالطبع لن يقوم في سنّ الشيخوخة أو رضيعًا، أو مريضًا، أو فيه إعاقة. سيكون كاملًا، سليمًا، لا مرض فيه ولا مكروه. كما قام المسيح كاملًا وسليمًا، هكذا سنقوم جميعنا في المسيح يسوع، في الذي هو بكر الأموات. لذلك، لا نؤمن نحن المسيحيّين بتناسخ الأرواح.

لو كنّا نؤمن بتناسخ الأرواح، فكيف يمكن أن يُقام الموتى؟ إذا ما قُمتُ أنا من بين الأموات، فبأيّ جسدٍ سأقوم؟ أبجسدي الحاليّ، أم بجسدي الذي عشتُ فيه قبل 50 أو 100 أو 200 سنة؟ وبالتالي ستضيع فرادة الشخصيّة البشريّة. إنّ الإنسان لا يتكرّر، ولا نأتي إلى هذا العالم مرّتين، ولم نكن موجودين سابقًا (ليس لنا "وجود سابق"). أتينا إلى الوجود في لحظة الحبل بنا. عندما حُبِلَ بنا في رحم أمّنا، حينئذٍ خُلقَتْ نفسُنا. لم تكن نفسنا موجودةً قبلًا، ولن تعيش في جسدٍ آخر لاحقًا. هذه التعاليم كلّها هرطوقية؛ رفضتها الكنيسة لأنّنا نؤمن بقيامة الأموات بوساطة المسيح يسوع، رئيس ملوك الأرض. المسيح فوق الجميع، وما من أحدٍ يفوق المسيح. ما من شيءٍ يحطُّ من قدر المسيح. المسيح فوق الجميع وفوق كلّ شيء.

وأولئك الذين هم مع المسيح هم أيضًا فوق الجميع وفوق كلّ شيء. ثمَّ يقول [السِّفر] إنَّ المسيح هو رئيس ملوك الأرض، الذي أحبَّنا وغسلنا من خطايانا بدمه. تمامًا كما نغسل طفلًا متَّسخًا ومُلطَّخًا ومُغطًّى بالقذارة، هكذا غسلنا المسيح وطهّرنا من خطايانا. كيف؟ بدمه. لذلك يا إخوتي، حين نذهب إلى القدّاس الإلهيّ، فإنَّنا نذهب بصورةٍ رئيسةٍ لنشترك في جسد المسيح ودمه لغفران الخطايا والحياة الأبديّة. بالطبع، بعد الاستعداد اللائق، نتقدَّم إلى كأس المناولة لنصير شركاء في هذا الحدث العظيم – وهو تطهيرنا. لقد صُلِبَ المسيح وخلَّصَ العالم بأسره؛ خلَّص البشريّة جمعاء بدمه الكلّيّ القداسة. وكلُّ واحدٍ منّا يُسهم في خلاصه

الشخصيّ، الذي جلبه المسيح إلى الأرض وأعطانا إيّاه بصليبه؛ نشترك في السرّ ونكون في شركةٍ مع المسيح الذي طهّرنا من خطايانا.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Metropolitan Athanasios of Limassol (2024). For the Time is at Hand. *Revelation: Removing the Veil,* Part 2B. Retrieved online from: *OrthoChristian*.

صون الرباط الزوجيّ:
لماذا يجب ألّا تُحلَّ الأزمات العائليّة إلّا ضمن العائلة؟

الأب ليونيد بارتكوف

إخوتي وأخواتي الأعزّاء في المسيح. لستُ أكتب هذه السطور بقلمي، بل بقلبٍ جرّحتهُ حالات طلاق أناس، وعزّاه تصالح غيرهم. أعلم أنّ كثيرين منكم ممّن يقرؤون هذه الكلمات مُتعَبون. أنهكهُم سوء الفهم، والبرودة على مائدة العشاء، والصمت الثقيل؛ أو على عكس ذلك، أتعبهُم ضجيج المشاجرات. ويهمس لكم عدوُّ الجنس البشريِّ بحلٍّ بسيطٍ كما يبدو له: "اذهبوا واروووا قصَّتكم لأحدٍ ما، وتذمَّروا، وسيفهمكم ويعرف ما الذي يجب فعله". أتوسَّل إليكم: توقّفوا. أعيروني انتباهكم في هذا النصّ لبرهة، فلربَّما يعطيكم الله منظورًا مختلفًا.

الكنيسة الصغيرة وعهد السماء

اعتدنا أن نسمّي العائلة "كنيسة صغيرة"، لكنّنا غالبًا ما نردّد هذه الكلمات على نحوٍ شكليّ، غير آخذين بعين الاعتبار معناها العميق والخلاصيّ. ليست الكنيسة جدرانَ معبد، بل هي التئام المؤمنين المخلِصين، متَّحدين بوساطة كأس المسيح. وبصورةٍ مشابهة، ليست العائلة ختمًا على جواز سفر، ولا ميزانيّةً مشتركة، ولا مجموعةً من أدوات المطبخ؛ إنَّها سرٌّ مقدَّس (Sacrament). إنّها عهدٌ نقطعه، لا أمام سيّدةٍ متوسّطة العمر في مكتب تسجيل الزواج، بل أمام الله نفسه.

حين يقف شخصان تحت إكليلَي الزواج، يُعطَيان نعمةً لا للتمتُّع بالأحلام الورديّة إلى الأبد، بل لسلوك الطريق من الـ "أنا" إلى الـ "نحن". إنَّها رحلةٌ مخيفةٌ يصلبان فيها أنانيَّتهما. ليست الأزمة العائليّة آلةً مُعطَّلةً تحتاج إلى أن يُصلحها جارنا، بل هي عمليَّةٌ جراحيَّةٌ يُجريها الله على نفوسنا. وتمامًا كما الحال خلال إجراء عمليّةٍ جراحيّة، لا حاجة إلى وجود متفرّجين. ثمّة حاجةٌ إلى الصمت والصلاة والثقة بالـ "طبيب". "ما جمعَهُ الله لا يفرّقه إنسان" (متّى 19: 6).

تأمّلوا في التالي: لا ينبغي لأيّ شيءٍ أن يخترق هذا الباب المغلق - لا الناس، ولا الظروف، ولا نصائح آخرين، بل ولا حتّى نوايا الأقرباء التي تبدو صالحة.

الخطأ الأساسيّ: السرّ المقدّس أمام الملأ

تكمن المشكلة الكبرى في العائلات المعاصرة في "إخراج القمامة من المنزل". قديمًا، كان يُعمَلُ بهذا المثل بشكلٍ حرفيّ، فكانت تُكنَس القمامة حتّى عتبة الباب، وكان من غير المسموح أن تتجاوزه. أمّا اليوم، فنحن نحمل هذه القمامة ونلفُّ بها العالم: نذهب إلى والدتنا، وصديقنا، وأخينا، ووسائل التواصل الاجتماعيّ، وعابري السبيل.

لماذا نفعل هذا؟ في الغالب بداعي التواضع الزائف الذي تفوح منه رائحة الكبرياء. نبحث عن تأكيدٍ لصحّة موقفنا الشخصيّ، لا عن نصيحة. نرسم صورةً قاتمة الألوان لشريك حياتنا، بينما نبقى صامتين بخصوص خطايانا نحن. نعقد "مجمع أبرارٍ" ضدّ "طرفٍ مذنبٍ" واحد.

تذكّروا كيف أنَّه في أغلب الأحيان، بعد التصالح في اليوم التالي، تكونون قد نسيتُم بالفعل سبب المشاجرة، بينما لم تنسَ والدتكم أو صديقكم المقرَّب. يبقى شريك حياتكم إلى الأبد في نظرهم ذاك "الوحش" الذي وصفتُموه ببكاءٍ وغضبٍ يوم الثلاثاء. أنتم سامحتُم، وأمّا هم فلا. وهذا السمُّ سيتسرَّب إلى علاقتكم لسنواتٍ قادمة.

إنّ الأب المعرّف يرى النفس ويتكلّم انطلاقًا من الكتاب المقدّس. أمّا الجارة فلا ترى سوى واجهة غضبكم وتحكم عليه بناءً على خيباتها الشخصيّة. لذا فإنّ ائتمان الآخرين على هذا الظاهر هو كرَمي القدسات إلى الكلاب.

سرُّ الصمت في الحياة الزوجيّة

يوجد مبدأٌ هو مبدأ "الصمت في الحياة الزوجيّة". وهو لا يعني أن يصمت الزوجان ولا يُكلِّما بعضهما، بل يعني الحفاظ باحترامٍ على حرمة العالم الداخليّ من التدخُّل الخارجيّ. كلُّ ما يحصل بين الزوج والزوجة، من لحظات ضعف، وبكاء، وحميميّة، وسوء تقديرٍ للشؤون المنزليّة، وسقطاتٍ روحيّة، تستره المحبّة.

فلنتذكّر أبناء نوح. رأى حام عُري أبيه وذهب وأخبر إخوته بالأمر. أخذ سام ويافث الرداء وسارا نحو الخلف، وسترا أباهما من دون رؤية عورته. هذا مثالٌ على التصرُّف الصحيح. في كلّ عائلة، توجد لحظاتٌ يبدو فيها الزوج في حالةٍ غير مستحبّة، كأن يكون ثملًا أو ضعيفًا أو غبيًّا أو غاضبًا. ليست غاية شريك حياته التقاط صورٍ لهذه الحالة المُهينة وعرضها على محكمة العائلة، بل أن يسترها بالمحبّة من دون أن يدينها.

حين تشكون شريكَ حياتكم للآخرين، فإنّكم تُلحِقون ضررًا دائمًا بالاحترام الذي تكنُّونه له. ليست الكلمات عصافير [تطير وينتهي الأمر]، فقولكم في لحظة غضبٍ "إنّه فاشل" أو "إنّها امرأة هستيريّة" سيظلُّ محفورًا في أذهان الوالدين. لماذا تُفاجئين إذًا حين تنظر والدتك إلى صهرها بازدراء؟ أنتِ مَن جعلها ترى زوجكِ من هذا المنظور السيّئ.

الاعتراف لدى أبٍ مُعرّفٍ هو شفاءٌ وخجلٌ يقود إلى التنقية. أمّا الاعتراف أمام حشدٍ من الناس هو تعريةٌ للنفس تقود إلى الهلاك.

إنَّ القديس يوحنّا الذهبيّ الفم، معلّم التقوى العظيم، تحدّثَ عن عالم العائلة بأنّه آنيةٌ ثمينةٌ يجب حفظها من أدنى نفحة هواء. فلا تُحوِّلوا بيوتكم إلى "طريقٍ عامّ"!

وهْمُ "الاستقلال الفرديّ": الهجران بوصفه خيانةً للعهد

إنّ السيناريو الأكثر خبثًا وحداثةً هو الهروب. تُقال عباراتٌ مثل: "لقد تعبت"، "أحتاج إلى مساحتي الخاصّة"، "فلنعِشْ مُنفصلَين ونختبرْ مشاعرنا". ويبدو ذلك أمرًا نبيلًا للغاية، وذا طابعٍ أوروبيّ، لكن تكمن خلفه خطيئةٌ قديمةٌ قِدم الدهر: الجُبن.

ليس الزواج عقد إيجارٍ مريحًا حيث يمكنكم الرحيل بعد إعطاء إيعازٍ قبل شهرٍ من ذلك. الزواج صليب – هو الصليب عينه الذي يُصلَب عليه الإنسان العتيق. وحين ينزل أحد الزوجين عن الصليب، فإنَّه يترك الآخر يموت هناك وحيدًا.

أتذكّر حالةً تعاملتُ معها خلال خدمتي الرعائيّة. سئم أحد الأزواج من المشاجرات اليوميّة، فذهب إلى والدته "لتسوية الأمور"، وبقيت زوجته وحدها مع طفلين. مضى شهرٌ ثمّ آخر وآخر. وكان الوضع ملائمًا له: كانت والدته تُطعمه وتعتني بنظافته، وتخلَّصَ من صراخ أولاده وتقريعات زوجته. ولكنْ عندما قرّر العودة، وجد أنّ زوجته كانت قد بكَت إلى أن تلاشى كلُّ حبّها له خلال تلك الشهور. كانت قد تعلّمت أن تعيش من دونه.

وبسبب تذوّقها ألم الخيانة، أُغلقَ قلبها وكستهُ طبقةٌ جليديّة. كان التخلّي عن السرير المشترك الخطوة الأولى لتباعُد الروحَين إلى الأبد.

إنّ الأقارب الذين يؤيّدون فكرة "إجازةٍ عائليّة" كهذه يتحمّلون مسؤوليّة هائلة. فهُم بذلك لا يقدّمون المساعدة، بل ينقبون كاللصوص في جدران منزلكم، ظانّين أنّهم يفسحون مجالًا للأزواج للتنفُّس. أمّا البديل عن الانعزال فهو رحلة حجٍّ مشتركة، وصلاةٌ مشتركةٌ غايتها تحقيق الاتّفاق، وليس أن يهرب أحد الزوجين من الآخر. ما لم يوجد وضعٌ يُشكّل تهديدًا للحياة، احتمِلوا. احتمِلوا معًا. حتّى بالصمت، حتى بغصب أنفسكم، ولكن قوموا بذلك معًا.

الشكاوى اليوميّة ولعنة "التخاطُر"

والآن فلنتحدّث عمّا يدمّر العائلات من الداخل وبصمتٍ ومن دون أيّة فضائح: إنَّها الكبرياء الصامتة. إنَّه مشهدٌ كلاسيكيٌّ مألوفٌ لدى كلّ كاهن. تجلس أمامه الزوجة بوجهٍ خالٍ من التعابير، بينما لا يفهم الزوج حقًّا ما الذي حدث. وتكون المشكلة أنَّه لم يدرك أنَّ عليه إخراج القمامة مع أنَّها "لمَّحت إلى ذلك ثلاث مرّاتٍ بتنهيدة". أو تكون المشكلة أنَّها لم تُقدِّر صبره البطوليّ حين كان يعاني من الصُّداع بصمتٍ منتظرًا تعاطفها معه.

يا أعزّائي! وهبنا الله لسانًا لا لنأكل فقط، بل لنُفصِحَ به أيضًا عمّا نريد. أن تتوقّعوا من شريك حياتكم قراءة أفكاركم ليس دليل رباطٍ روحيٍّ عميق، بل هو علامة كبرياءٍ وتلاعب. إنَّه "تخاطرٌ ذهنيّ" في خدمة الشيطان.

في هذا السياق، كثيرًا ما أتذكّر قصّة أنطون بافلوفيتش تشيخوف القصيرة الرائعة "Pecheneg". أتذكُرون ضابط القزاق المتقاعد "Zhmukhin"؟ هذا ظلّ يعذّب زوجته طيلة حياته بتنظيراته السخيفة وانعدام محبّته التامّ، وعندما توفّيت، لم يفهم مُطلقًا لمَ كانت بائسة. عاش معها في سهلٍ ناءٍ، لكنّهما كانا بعيدَين كلّ البُعد بعضهما عن بعض، لأنَّهما لم يتبادلا ولا حتّى كلمةً قلبيّةً واحدة. كانت "فلسفته" قد حلَّت محلَّ حياته.

وكم من العائلات يعيش فيها الأزواج في عالم نظريّاتهم الخاصّة مثل "Zhmukhin"، بينما تختنق الزوجات بصمتٍ لافتقادهنَّ كلمةً بسيطةً دافئة؟ وتموت أرواحهنّ، لا من الصراخ، بل من هذا الصمت الجليديّ اللامتناهي الأشبه بالسهل المنبسط.

إنَّ الطلب المُعبَّر عنه بصراحةٍ ولطفٍ يعكس تواضعًا. أمّا النقمة التي يتمّ تجرُّعُها بصمتٍ هي قنبلةٌ موقوتة. لا تدعوا أحبّاءكم رهنَ التكهُّنات. لا تُعاقبوهم بالصمت. قولوا: "أنا متألّم"، "أنا مُتعب"، "ساعدني"، "أرجوك ساندني". أبعدوا خطيئة الجهل عن أحبّائكم.

أبجديّة الحوار العائليّ: خطوات عمليّة

لا يسعُني أن أترك لكم المواعظ فقط. بل عليَّ، بوصفي راعيًا، أن أزوّدكم بأمورٍ توجيهيّة. إليكم بعد القواعد البسيطة، ولكن الإسعافيّة، لمن اختاروا العيش وفقًا لمشيئة الله بدلًا من نزوات هذا العالم.

1. **قاعدة الباب الموصَد.** كلّ ما يتعلّق بخلافاتكما وشؤونكما المادّيّة وحياتكما الحميمة وخططكما المستقبليّة يجب أن يبقى بينكما. إذا ما احتجتما إلى نصيحة، فاقصِدا الكاهن معًا. لا يحقّ لأحدٍ أن يتدخّل في شؤونكما الخاصّة، لا والدتكما ولا صديقكما ولا حتّى عرابكما.
2. **استخدام لغة غير سامّة.** توقّفا تمامًا عن استخدام عباراتٍ مثل "أنتَ لا تفعل كذا مُطلقًا"، "أنتَ دائمًا.."، "أمّك". تحدّثا عن نفسيكُما هكذا: "أنا قلِق"، "أحتاج إلى انتباهك". هذه هي لغة النفس الناضجة.
3. **صَدُّ الأشخاص الحَسَني النيّة.** حين يحاول أحدهم للمرّة المئة إسداء نصيحة لكما من دون طلبٍ منكما، قولا بلُطفٍ ولكنْ بحزمٍ "نشكر اهتمامك، لكنَّنا سنتولّى الأمر بنفسنا، وإذا ما عجزنا عن ذلك يمكننا استشارة كاهن". تضعُ هذه العبارة حدًّا لأيّ متطفّلٍ يؤدّي دور الوسيط.
4. **ربع ساعة مقدّسة.** أطفئا التلفاز وضَعا الهواتف جانبًا. اجلسا بجوار بعضكما وليس مقابل بعضكما كالأعداء، ولكن أمام أيقونة. أشعلا شمعةً أو قنديلًا. فليقل كُلٌّ منكما ما هو ممتنٌّ من أجله اليوم وما هو آسفٌ عليه. لا تُقاطعا بعضكما. استمعا وكأنّكما في جلسة اعتراف.
5. **الكأس المشتركة.** إنّ أقوى علاجٍ للطلاق هو اعترافٌ مشتركٌ لدى الكاهن نفسه ومناولةٌ مشتركة. حين يتناول الشخصان بالملعقة عينها، تذوب شكاياتهما كالشمع. كيف يمكن لأحدٍ أن يغرق في الحياة اليوميّة حين يتدفّق دمُ المسيح في شرايينه؟

العودة إلى عهد الحبّ

أيّها العزيزان، انظُرا حولكما. العالم في الخارج ليس رحيمًا، إنَّه قاسٍ وغير مبالٍ. سيدوس بكلِّ سرورٍ على وحدتكما ويمزّقها إربًا بالثرثرة والإشاعات. لا تمنحاه هذه الفرصة.

تذكَّرا قصّة غوغول: "مُلّاكُ العالم القديم"، وبطلَيها أفاناسي إيفانوفيتش وبولخيريا إيفانوفنا. قال الناس إنَّهما مملّان ولم يكونا يفعلان شيئًا سوى تناول الطعام. ولكن اقرآ كيف بكى ذلك الرجل العجوز حين توفّيت زوجته. جمعهما تفاهمٌ عميقٌ وحبٌّ حميمٌ هادئ، حتى إنَّ قصص حبّ شيكسبير بدت كلّها باهتةً مقارنةً بقصّتهما. لم يحتملا الثرثرة، بل عاشا في صمتهما الخاصّ، وكان صمتهما ممتلئًا من الله.

ليس الحبّ مجرّد فراشاتٍ في المعدة، بل هو إنجازٌ روحيٌّ عظيم، هو عملٌ طوعيّ. حين سأل المسيح بطرس: "أتحبُّني؟"، استخدم الفعل "agapao" الذي يعني محبّةً طوعيّةً مُضحّية، بدلًا من "philo" الذي يعني المودّة. واستجاب بطرس بهذا النوع من المحبّة. هذه هي المحبّة التي أوصانا الله بها. "الْمَحَبَّةُ تَتَأَنَّى وَتَرْفُقُ. الْمَحَبَّةُ لَا تَحْسِدُ. الْمَحَبَّةُ لَا تَتَفَاخَرُ، وَلَا تَنْتَفِخُ" (1 كو 13: 4-5).

اعتنيا برباطكما الزوجيّ، ولا تدعا العالم يحكم عليه. عيشا في صمت الحبّ، واحملا أثقال بعضكما، وتحدَّثا إلى أن يُبحَّ حلقاكما. صلّيا بحرارةٍ إلى أن تذرفا الدموع، ولكن لا تفتحا أبواب فُلكِكُما لمن في الخارج. هناك طوفانٌ في الخارج. ومنزلكما هو الجزيرة الأخيرة من الفردوس على الأرض. فليُثبِّت الله بيتكما.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Priest Leonid Bartkov (n.d.). “Cherishing the Bond: Why Are Family Crises Only Resolved Within the Family?”. Retrieved online from *OrthoChristian*.

تشبّثوا بالعارضة

الأب رافائيل نويكا

دعوني أعود إلى مقولة: **"أبقِ ذهنكَ في الجحيم ولا تيأس"**. حين سمع الأب [القدّيس] صفروني هذه العبارة للمرّة الأولى، أدركَ على الفور أنّها كلمةٌ إلهيَّةٌ لم تُعطَ من أجل القدّيس سلوان وخلاصِه وحده، بل من أجل جيلٍ بأكمله، لمواجهة اليأس الذي كان قد بدأ يتجذّر في عالمٍ غارقٍ في القنوط، تمامًا كما اختبره هو بنفسه بعد الحرب العالميّة الأولى. أودُّ أن أضيف شيئًا حول هذا الموضوع. رأيتُ الكثير من الناس يتوتَّرون إلى حدٍّ كبيرٍ عندما يقول الله "لا تيأس"، لأنّهم أصلًا رازحين تحت الضغط ويسألون أنفسهم: "كيف أمنعُ نفسي من اليأس حتّى لا أُغضِبَ الله؟". لا، يا إخوتي وأخواتي، ليس هذا هو المعنى المقصود. لا ينهى الله عن اليأس، بل بالأحرى يُعلِمُنا أنَّه ما من حاجةٍ إليه. لا حاجة إلى أن نيأس.

حين تعجزون عن الاستمرار، حين تشعرون بأنّكم تكادون تفقدون عقولكم... تذكّروا ما قاله الأب صفروني ذات مرّةٍ لأحدِ النُّساك: **"اذهبْ وأعدَّ لنفسكَ كوبًا من الشاي"**، أو ما قاله القدّيس إسحق السريانيّ لناسكٍ آخر: **"حين تشعر بأنّ الأفكار التجديفيّة تتغلّب عليك، لُفَّ نفسكَ بجبَّتك واستلقِ لتنام"**. وبلُغة اليوم يمكن القول: "خذوا قيلولة". استعيدوا عافية جسدكم، وما إن تستردّوا قوّتكم، تابعوا [جهادكم]. لقد شارك الأب صفروني الناسكَ ما كان هو نفسه قد اختبره. كان الناسك في ضيافة الأب صفروني وقد حضّر له الأب بعض الشاي والبسكويت بالقليل الذي كان لديه، وإذ رأى الأب الحالة الروحيّة لهذا الرجل قال له: **"عِشْ يأسكَ حتّى النهاية، ولكنْ عندما تشعر بأنّكَ تهوي في الهاوية، قمْ وأعدَّ لنفسكَ كوبًا من الشاي"**. بتعبيرٍ آخر: أرحْ نفسكَ قليلًا. وحين تستردُّ قوّتكَ يمكنك المتابعة. المتابعة بأيّة طريقة؟ أتابع وأنا أعرف أنَّه في مكانٍ ما، توجد عنايةٌ إلهيّةٌ -حتّى ولو ما زال الأمر مخفيًّا عني- وأنا في انتظار أن تتكشّف. (...)

في أشدّ لحظات حياتنا قسوةً، لا يوجد سببٌ لليأس، وفقدان الرجاء، والاستسلام للموت بالإغلاق على أنفسنا داخل ذلك اليأس، بل على العكس: في معظم الأحيان -بل ربّما في كلّ مرّة- يمكن لأكثر لحظاتِ حياتنا فظاعةً أن تكون الأثمن. تلك تحديدًا هي اللحظة التي عليكم أن تصمدوا فيها قليلًا بعد. فكّروا في البحّار الذي يكون عالقًا على ظهر السفينة حين تضربها موجةٌ هائلة. لثانيةٍ أو اثنتين يتوارى سطحُ السفينة تحت سطح البحر. هل تلك هي اللحظة المناسبة لإفلات العارضة؟ كلّا، حتّى إنَّها ليست اللحظة المناسبة لمحاولة الفرار للاحتماء في الحُجرة. على العكس، تلك بالتحديد هي اللحظة التي يجب أن نقوم فيها بشيءٍ واحدٍ فقط: أن نتشبّث بالعارضة. حينها تحبسون أنفاسكم

إلى أن تعبر الموجة. ومن بعدها، حين تعلو السفينة مجدّدًا فوق سطح الماء، يمكنكم النزول من على سطح السفينة إذا كان ذلك ضروريًّا. هكذا هو الأمر في أكثر لحظات حياتنا صعوبةً وكآبةً ومأساويّة. يمكن أن تكون هذه اللحظات هي الأثمن. (...)

لقد تكلَّمتُ على حياتنا الشخصيّة، لكنَّ الأمر عينه ينطبق على حياة العالم أجمع. نتحدّث عن الزمن الإسخاتولوجيّ، عن فترة نهاية الأزمنة. (...) أعتقد أنّ هذه الفترة، بقدر ما ستكون مأساويّةً ومُفجعة، بقدر ما ستصبح ثمينة، لا بالنسبة إلى كلّ واحدٍ منّا بصورةٍ شخصيّةٍ فحسب، بل بالنسبة إلى الجنس البشريّ ككلّ، وبالنسبة إلى التاريخ بحدّ ذاته. ما الذي سيحصل؟ سنرى. لكنّنا نحيا في الرجاء بربّنا. ونسأله أن ينمّي فينا ما يعجز الإنسان عن تحقيقه بقوّته الذاتيّة، وفقًا لكلمة الله نفسه: **"غير المستطاع عند الناس مستطاعٌ عند الله"**.

علينا أن نُكثّف صلاتنا اليوم أكثر من ذي قبل: **"يا ربّ، هلمَّ واسكن فيَّ، وحقّقْ أنتَ في داخلي الأمور المرضيّة لك"**. من بين الأمور المرضيّة لله، والتي لدينا حاجةٌ بالغةٌ إليها اليوم هو الإيمان الذي سيحفظنا خلال الأحداث التي قد تصبح على ما يبدو أكثر فظاعةً ولا يمكن تصوّرها. ليس هذا وقتٌ لليأس. بل بالأحرى، اليوم، أكثر من ذي قبل، هو الوقت المناسب للتشبّث بالعارضة إلى أن تعبر الموجة. ومن يدري كيف ستعبر وبأيّة طريقة؟ ولكنَّ المقولة الجوهريّة باقية: **"أبقِ ذهنكَ في الجحيم ولا تيأس"** (...)

مع الثورة الصناعيّة والحرب العالميّة الأولى، نشأ عالمٌ آخر. وفي هذا العالم الجديد نسعى على قدر المستطاع لأن نعيش كما عاش آباؤنا القدّيسون. نقول: **"نشكركَ يا ربّ"** عندما يكون باستطاعتنا ذلك، وحين لا نستطيع، نحتمل بصبر. وكما اعتاد الأب كليوبّا [القدّيس كليوبا الذي من دير سيهاستريا] أن يقول: **الصبر، الصبر، الصبر...** فليمنحكُم الله، ويمنح جميعنا، تعزيةً إلهيّةً خفيّة، تلك التعزية التي تُمكّنكم من اجتياز هذه التجارب، تعزية البحّار الذي يعرف أنّ الموجة ستعبُر. وأمّا في الوقت الحالي، فيمكن القيام بأمرٍ واحدٍ فقط: التشبُّث بالعارضة.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Archimandrite Rafail Noica (n.d.) “Hold Fast to the Rail”, in *Sayings of the Romanian Elders*. Retrieved from Substack.